

النثر الجزائري القديم

لم ينفصل النثر الجزائري القديم عن النثر العربي القديم في عمومته ، فهو جزء لا يتجزأ منه ، وقد أشرنا إلى بعض النصوص النثرية الجزائرية في المحاضرات السابقة ، وهذه المحاضرة ستتجه نحو رصد الخصوصية التي يتمتع بها هذا النثر من حيث المضامين ومن حيث الأساليب ، حيث ستتجه أولا نحو تحديد مفهومه ثم ستعرج نحو عوامل تطوره وأغراضه وصولا إلى تحديد خصائصه.

أولا : مفهوم النثر الجزائري القديم : هو " مجموعة الأعمال والنصوص النثرية التي كتبت من قبل كتاب جزائريين ، عاشوا في الجزائر أو قضوا فيها حقبة معينة من حياتهم (بعد الفتح) أين تفاعلت مخيلتهم ، والواقع الجزائري فعمكسوا سمات هذا المجتمع ، من خلال موضوعات تعد جزءا من خصوصية الثقافة الجزائرية القديمة".

ثانيا : العوامل المؤثرة في تطوره : استطاع النثر الجزائري القديم أن يحتل مساحة خاصة به في الأدب العربي القديم عموما مما يدل على قوته ، لكن لابد من التنبيه إلى أن النثر الجزائري القديم لم يبتدئ قويا مزدهرا ، وحتى حين تطور وارتقى فإنه لم يحافظ على درجة النماء والازدهار نفسها بل مرت عليه مراحل عكست ضعفا وخمولا في النشاط الأدبي عامة ، وقد أوضح الدكتور عبد المالك مرتاض في سياق حديثه عن الأجناس الأدبية في الأدب الجزائري القديم أن الحديث عن النثر الفني لا يكاد يظهر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، فقد كان من باب التكملة والتفريغ لا من باب التأسيس والتأصيل ، ثم ينتقل النثر بعد ذلك إلى طور النماء والازدهار ، ولا يلبث أن يتقهقر ويناله الجمود خلال العهد العثماني.

أما ما يتصل بالعصر الذي عرف فيه النثر الجزائري ازدهارا كبيرا وتطورا محسوسا من حيث الكم ومن حيث الكيف ، فقد هيأت لذلك التطور عدة عوامل من شأنها أن تدفع به أهمها:

- ✓ ملوك الدولة كانوا من العلماء والأدباء والشعراء فمن البديهي أن يسعوا إلى تنشيط الحركة العلمية والأدبية ، فقربوا إليهم أهل العلم والأدب وأغدقوا عليهم وحاطوهم برعايتهم وعنايتهم "كانوا يستوزرون أعظم الأدباء والكتاب" ، فأصبح البلاط الزياني زاخرا

بالأدباء.

✓ الأحداث التي أَلمت بهذه الفترة وأثرها في نفوس الشعراء والكتاب، فهذه الأحداث شحذت القرائح فجاءوا بشعر جيد ونصوص نثرية. حيث " جعل الأدب ميدانا لتمرير الرسائل السياسية بين الداعمين والمعارضين للسلطة خاصة ما تعلق بالأشكال النثرية التي استخدمت في تأجيج الصراع المذهبي خاصة ما تعلق بالمناظرات والخطب والرسائل".

✓ نزول المهاجرين الأندلسيين بالأراضي الجزائرية واستقرارهم بها، فكان لهؤلاء إسهامهم الواضح في الحياة النثرية وقد ذكر الطمار ما يلي: " وكان حظ الجزائر منهم كبيرا فاستقبلتهم بلادنا بصدر رحب فأفادوا بمواهبهم وثقافتهم اللامعة أسواق العلم والأدب، فراجت رواجاً لم ير من قبل"، " وقد سجل التاريخ رسائل أنشأوها لملوك بني زيان"، كما ظهر أدب الرحلة والموشحات .

✓ الرحلات التي قام بها الأدباء الجزائريون نحو المشرق وبلد الأندلس والاحتكاك بأدباء هذه الأقاليم كان له الأثر الواضح على غزارة إنتاجهم النثري .

✓ تقاطر العلماء من تونس والأندلس و الشام والعراق والحجاز وصقلية والعجم على المراكز العلمية ببجاية وتيهرت وتلمسان وغيرها، مما كان له عظيم الأثر في تبادل الخبرات الأدبية.

✓ الانتشار الواسع للغة العربية الفصيحة و تقلص اللغة البربرية لحساب اللغة العربية بعد توافد القبائل العربية على المغرب واستقرارهم بها مثل بني هلال وسليم وزغبة ورياح .

✓ كانت حواضر الجزائر مثل: المسيلة، المحمدية، طبنة، بجاية، تيهرت (التي كانت عاصمة الرستميين فكانت تسمى عراق المغرب أو بلخ المغرب). أشبه بالعواصم العلمية التي تستقطب العلماء والأدباء وتنشط بها حركة أدبية كثيفة، فضلا عن انتشار المكتبات والمعاهد العلمية.

ثالثا: أشكال النثر الجزائري القديم : لقد عرف التراث الأدبي الجزائري أجناساً نثرية عدة أهمها

:

1-الترسل : لم يغب هذا الفن عن الساحة النثرية الجزائرية، فبرزت عصور كانت هي الأرقى في هذا الفن ولعل العصر الموحدى من أكثر العصور احتضاناً له، وازدهار فن الترسل بعكس أهمية الكتابة النثرية ودورها الريادي في الحياة السياسية والثقافية في الجزائر القديمة على مراحل

زمنية متعاقبة.

ومن الأسماء التي أسست لهذا الفن في الجزائر الأمير: أفلح بن عبد الوهاب ، وابنه محمد بن أفلح ، وأغلب الرسائل التي كتبت إبان ذلك العهد تتناول موضوع الوعظ، والترغيب، والترهيب، والتذكير بأيام الله، ويظهر على الرسائل التي كتبت ووصلت إلى أيادي الباحثين أنها متأثرة بأسلوب القرآن الكريم ،

2-الخطابة : إن الخطابة من أبرز فنون النثر في الأدب العربي، وأغراضها متعددة تشمل الدين والسياسة

والاجتماع، ونحو ذلك، وخلال عهد الدولة الرستمية ازدهرت الخطابة التي اشتهر بها أئمة الرستميين أيما ازدهار لارتباطها بأحداث العصر من جهة ، كما فرضتها طبيعة المجتمع القبلي من جهة أخرى، ومن بين الخطباء الذين اشتهروا في ذلك العهد: ابن أبي إدريس، وأحمد التيه، وعثمان بن الصفار، وأحمد بن منصور، لكن مع مجيء العثمانيين انحصرت الخطابة في غرض واحد، وهي الخطابة الدينية المحصورة في المساجد، وذلك أن الساسة كانوا غرباء عن البلاد، كما كانوا لا يتقنون اللغة العربية، وهذا ما أدى إلى ضعفها، ومن أشهر خطباء هذا العصر سعيد قدورة والمقري وعبد الكريم الفكون وأحمد بن عمار، وما يلحظ بشأن هؤلاء أن خطبهم لم تكن مدونة ولم يصلنا منها إلا القليل.

وفيما يتصل بخصائص الصياغة الأسلوبية للخطابة في الأدب الجزائري القديم، فقد كانت متأثرة بأسلوب القرآن الكريم، وكانت تضم كثير أ من الاستشهاد بآياته ، بالإضافة إلى الاقتباس من خطب الرسول محمد-صلى الله عليه وسلم-، كما أن النسيج الفني للخطابة كان يجنح إلى السجع، فمعظم الجمل المستعملة مزدوجة الإيقاع ، كما يُلاحظ أن النزعة الدينية بحكم طبيعة موضوع المضمون، ومناسسته ، كانت تغلب على النزعة الأدبية ، فالتصوير الفني ، والتخييل يكاد ينعدم في هذه الخطب.

3-أدب التصوف: من مشاهير الصوفية الذين عرفتهم الجزائر أبو مدين شعيب التلمساني الإشبيلي (ت 954هـ) ، قرأ بالأندلس وفاس ، تعرف على الشيخ عبد القادر الجيلاني الفارسي وأخذ عنه واستوطن بجاية وهناك كثر أتباعه ، توفي بتلمسان ، سئل عما خصه الله به فقال : مقامي العبودية وعلومي الألوهية وصفاتي مستمدة من الصفات الربانية ، ملأت علومه سري وجهري ، وأضاء بنوره بري وبحري " ومن كلامه : " بفساد العامة تظهر ولاة الجور وفساد الخاصة يظهر دجاجة الدين الفتانون " وقال : احذر محبة المبتدعين فهو أبقى على دينك ، واحذر محبة النساء فهو أبقى على قلبك "

4-المقامات: لا أحد ينكر تأثر المغاربة بالمشاركة في هذا الفن ،فقد « غرّف أدباء المغرب العربي من معين المشاركة وتأثروا بكتاباتهم؛ إذ اتخذوا من أساليب أدباء المشرق نماذج ينسجون على منوالها."

وقد ظهر هذا التأثير في مقامات ابن شرف القيرواني والسرقسطي وغيرهم، وتعد منامات الوهراني من أهم النماذج النثرية الشامخة التي قدمها الأدب الجزائري في تاريخه، وقد سبق الحديث عنه في محاضرة سابقة ، ومما قاله الوهراني : "لما تعذرت مآربي واضطربت مغاربي ،ألقيت حبلي على غاربي ،وجعلت مذهبات الشعر بضاعتي ...فما مررت بأمير إلا حللت ساحته واستمطرت راحته ،ولا بوزير إلا قرعت بابه وطلبت ثوابه ،ولا بقاض إلا أخذت سيبه وأفرغت جيبه "

ونلاحظ في هذا السياق أن فن المقامات في الجزائر في عصور متأخرة ،خاصة خلال العهد العثماني قد ضعف شكلا ومضمونا، واتسمت المقامات فيه بسمة العصر، ومن الكتاب الذين تناولوا هذا الفن: أحمد البوني في كتابه المسمى "أعلام الأخبار بغرائب الوقائع والأخبار، ونجد أيضا ابن حمادوش الذي ألف ثلاث مقامات.

5-أدب الرحلة : شهد هذا الفن ازدهارا ملحوظا بداية من القرن الحاد عشر الميلادي ،ربما مرد هذا التميز في رحلات المغاربة عموما والجزائريين خصوصا إلى طول المسافة بين المغرب وبلاد المشرق التي كانت في الغالب مقصد الرحلات الجزائرية ، لذا فمسارات الكتابة ستطول هي الأخرى بالرحالة ،وهذا ما جعل هذا الفن يزدهر مغاربيا .

تعد رحلة المقرري الموسومة ب" رحلة المقرري إلى المغرب والمشرق " من أشهر الرحلات في الأدب الجزائري القديم ،كان الغرض منها أداء مناسك الحج ،تعرض المقرري في رحلته لمسائل فقهية ووصف الحياة الثقافية والعلمية للمجتمعات التي زارها ضمت مدونته فهرسة لأسماء العديد من العلماء وهي جمة الفائدة .

الرحلة الورثلانية الموسومة ب:"نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار " للعلامة الحسين بن محمد السعيد الورثلاني (ت 1193هـ) الذي رحل إلى مصر والحجاز فوصف رحلته إلى الديار المقدسة ،تعد أهم رحلة جزائري اعتنت بتسجيل الأخبار التاريخية للبلدان العربية ،ووصف الفضاء الجغرافي لها ،فضلا عن وصف مشاق الرحلة ومتاعبها ،عدد الكاتب نقاط العبور من مكة إلى المدينة ، ورسم الرحالة خارطة جغرافية للطريق من خلال المناطق المتعاقبة التي ارتادها الركب ،ووصف أعلام كل منطقة وشيوخها ومزاراتها .

وهناك رحلات أخرى غير التي ذكرناها ، منها :

-رحلة ابن عمار الجزائري إلى البقاع المقدسة المعروفة ب" نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب" خلال القرن الثالث عشر الهجري .

-رحلة ابن حمادوش الجزائري الموسومة ب" لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال" وتصف رحلته إلى المغرب الأقصى .يحتوي متن الرحلة على أجناس أدبية كثيرة مثل المنظوم، المقامات ، الرسائل ، السير ، الأخبار .

-رحلة ابن هطال التلمساني : الموسومة ب" رحلة محمد الكبير "

6- السيرة الذاتية : يعد كتاب " فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربه ونعمته " للعلامة أبي راس الناصري المعسكري الجزائري من الكتب التراثية الهامة التي تندرج ضمن أدب السيرة الذاتية مقتديا في ذلك بجلال الدين السيوطي في كتابه " نزول الرحمة في التحدث بالنعمة" .

رابعا: خصائص النثر الجزائري القديم :

- ✓ تميز الناثرون الجزائريون بالجمع بين فني النثر والشعر مثل ابن مرزوق الخطيب الذي وصف بأن" باعه في النظم والنثر مديد " .وقد نوه به لسان الدين بن الخطيب .
- ✓ تداخل الأجناس : وهذه نتيجة طبيعية للخاصية السابقة ، فالنصوص النثرية تمزج بين فني النثر والشعر كما هو الحال في نصوص المقرئ ، وقد نجد داخل نص نثري واحد (مثل الرحلات) أشكالاً من المقامات ، الرسائل ، السير ، الأخبار .
- ✓ تأثر النثر الجزائري بنثر المشاركة من جهة ، وتأثره بأدب الأندلس من جهة أخرى ، " دون أن يفقد شخصيته الجزائرية وما لها من ميزات "
- ✓ المزاجية بين النثر المرسل الذي لا يتقيد بزخرفة لفظية أو تنميق وبين النثر الذي تطغى عليه أشكال الصنعة ، وفي هذا السياق يذكر الباحث محمد الطمار ما يلي : "وأما الكتاب فقد نهضوا بالنثر نهضة فنية حلوة بخيال فسيح يلائم ذلك الجمال الإقليمي البديع وزينوه بالتشبيهات والاستعارات والعبارات الأنيقة وأفرغوه كالمشاركة والأندلسيين في سجع يتضمن أحيانا الآيات القرآنية والأحاديث والأشعار والأمثال ، واشتمل على كل مظاهر الحياة السياسية والعلمية والاجتماعية ، بجانب هذا النثر الفني كان نثر مرسل نلمسه في

الأسلوب العلمي والكتابة التاريخية "

✓ سيطرة الأثر الديني سيطرة تكاد تكون تامة لغة وأسلوباً ومضامين على النصوص النثرية، متأثرة بأسلوب القرآن الكريم ، حيث يقول الدكتور عبد الملك مرتاض عن هذه الظاهرة: "ألفينا النثر الرسائلي ، مثله مثل النثر الخطابي في الأدب الجزائري القديم ، شديد الولع بالاعتراف من الاستشهاد العائم ، والاقْتباس المندمج من القرآن العظيم ، ولعل ذلك يعود إلى طائفة من العلل" ، من أهم ما ينبغي أن يذكر منها ، هنا:

أ- إن أولئك المثقفين الأوائل، كانوا يلزمون تلاوة القرآن العظيم على أساس أنهم كانوا يحفظونه عن ظهر قلب، وكان حفظه لديهم شرطاً جوهرياً في تحصيل الثقافة والعلم والقيام بالكتابة.

ب- إن تطلعهم إلى مثل تلك الاقتباسات، والاستشهادات ، أو التناصات غير المعلنة(ولكنها لم ترد في نصوصهم على سبيل السطو، ولكن على سبيل التيمن، والتبرك، والتعبد)كان يُراد بها إلى تحلية نصوصهم، وتزكيتها بتلك الآيات الكريمات ، التي كانوا يعومونها تعويماً في نصوصهم.

✓ التأثر بالأحاديث النبوية الشريفة والاقْتباس منها .

✓ ارتبط النثر الجزائري القديم بالواقع ارتباطاً وثيقاً، إذ كان له الإسهام الأكبر في معالجة القضايا الاجتماعية، والسياسية، والدينية، والمذهبية، والأدبية، الأمر الذي يدل على أهمية الناثرين والنثر في الحفاظ على البنى السياسية والدينية والاجتماعية والعقائدية، ويتجلى هذا الدور واضحاً خلال عهد الدولة الرستمية ، حيث يذهب عبدالمك مرتاض في هذا الشأن إلى القول: " وحين نجى إلى الحديث عن النثر الأدبي على عهد الدولة الرستمية في الجزائر، وهو العهد الذي يمتد تقريباً من منتصف القرن الثاني إلى نهاية الثالث للهجرة(160هـ-296هـ) نلاحظ أن الدور الأدبي لهذا النثر لم يكن في شيء ثانوياً، بل إننا نرى أنه أسهم بشيء من الفعالية، والحركية في تأسيس الدولة الرستمية، وتطور نظامها، والتمكين لاتساعها، وتخليد معالم حضارتها".

خاتمة :

لقد استطاع النثر الجزائري القديم أن يحتل مكانة مميزة في الأدب العربي، وعلى الرغم من تأثر الأدباء بالأدب المشرقية والأندلسية إلا أنه استطاع أن يتجلى للعيان بخصوصيته التي تميزه عن غيره ، هذه الخصوصية انبثقت من الواقع الاجتماعي والسياسي والديني للجزائر من حيث

المحتوى والدلالة، ومن الخصائص الفنية التي انبنت عليها الفنون النثرية.
لم يكن النثر الجزائري بجميع أشكاله معزولا عن الحياة الاجتماعية والسياسية، بل كان عنصرا
فاعلا ومشاركا فيها .
أهم أشكال النثر الجزائري القديم تمثلت في أدب الرسائل بأنواعها، الخطابة، أدب التصوف، أدب
السير، المقامات (المنامات)، أدب الرحلة
الركود الثقافي كان له أثر واضح على نثر الفترة العثمانية إذ شهد هذا الأخير ضعفا مقارنة
بالعصور التي سبقتة .

مراجع المحاضرة :

فتيحة العزوني: محاضرات في النثر الجزائري القديم، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب
والفنون، جامعة أحمد بن بلة، وهران، 2014، 2015.

عبد المالك مرتاض: الأدب الجزائري القديم دراسة في الجذور، دار هومة للنشر والتوزيع،
الجزائر، دط.

محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

عبد المالك مغشيش : ملامح من الحركة الأدبية الجزائرية في القرن الرابع الهجري، مجلة اللغة العربية و آدابها، جامعة البليدة ، مارس 2014، مج.2، ع.5.

إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، دار الثقافة، بيروت، ط6، 1981.

ركن الدين محمد بن محرز الوهراني : منامات الوهراني ومقاماته ورسائله .

أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998، مج.2.